حرف القاف

قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنه

الكريم ابن الكريم

صحابي، أنصاري، خزرجي. تزوج «سعد بن عبادة» الخزرجي، «فكيهة بنت عبيد بن دُلَيْم بن حارثة». وكان من ثمار هذا الزواج الميمون «قيس بن سعد» فتربَّى في بيت كرم وجود، وسماحة ليس لها حدود، حيَّرت ألباب الكرماء، وأطفأت قناديل السخاء، ولم يقف منهم أمامه منافس، حتى صار حديث المجالس.

إنه شبل الأسد، فبورك الوالد والولد، لقد فتح «قيس» عينيه، وهو قرة عين والديه، فرأى الأنصار يمضي الرجل منهم بالمهاجر الواحد والاثنين أو الثلاثة إلى داره، وأما والده «سعد بن عبادة» فلا يرضى المضي بما دون الثمانين، تلك هي البيئة التي نشأ فيها «قيس» وترعرع، ولكن، ما الذي كان يقوله الناس عن جده (دُلَيْم بن حارثة)؟ كانوا يقولون: من أحب الشحم واللحم فليأت أُطُمَ دُلَيْم بن حارثة.

إذاً، وضع «دُلَيْمٌ» لبنيه وحفدته المنارة، وذلَّل لهم سبيل البذل والعطاء، فلم يجدوا عنها معدلاً، وأبوا لسواها منصرفاً، لقد أشربوا لبن المكارم صغاراً، ورعوا حقوقها كباراً، فأصبحت للناس شعاراً، ثم صاروا لدين الله ولرسوله أنصاراً.

ولم يكن «قيس» ليتخلف عن السيرة الحميدة التي كانت لآبائه وأجداده في ميدان السخاء، فقد ذكر الإمام النووي - رحمه الله تعالى - قال: (ونقلوا أنه لم يكن في الأوس والخزرج أربعة مطعمون متوالدون متوالون، إلا قيس بن سعد بن عبادة بن دُلَيْم، وآباؤه هؤلاء) والأربعة هم: قيس، وسعد، وعبادة، ودليم. ولكن ماذا تعلَّم «قيس بن سعد» من مدرسة الإسلام التي كان من أنجب الطلبة فيها، وأوائل متفوِّقيها؟ لقد تعلَّم البر والوفاء، وكان يجيد المكر والدهاء حتى أنه قال عن نفسه: لولا الإسلام لمكرت مكراً لا تطيقه العرب، وقال في مقام آخر: لولا أنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(المكر والخديعة في النار)** لكنت من أمكر هذه الأمة. فالإسلام أدَّبه وهذَّبه حتى أصبح يفعل ما يرضاه ويرفض ما يأباه.

وقد وصفه الإمام النووي بأنه[1]: (من فضلاء الصحابة، وأحد دهاة العرب، وذوي الرأي الصائب. والمكيدة في الحرب والنجدة، وكان شريف قومه غير مدافع، ومن بيت سيادتهم).

وكان «قيس بن سعد» يتمتع بذَكاء وقَّاد، ولا يأخذ الكلام بظواهره ولكنه يفهم ما وراء السطور، وقد روي عنه أن امرأة فقيرة قصدت بيته، وقالت له: أشكو إليك قلة الفئران في بيتي، فعرف «قيس» قصدها، وأدرك ما تعنيه، ثم قال: ما أحسن هذه الكناية!

لقد علم «قيس» أن المرأة فقيرة، وليس في بيتها طعام، مما يُزَهِّد الفئران في دخوله لأنها لن تصيب فيه ما يسدُّ رمقها، ويسكت جوعها، فتنصرف إلى بيتٍ سواه. ثم أمر «قيس» أهله أن يملأوا لها بيتها من الخبز والسمن واللحم، ولم يكتفِ «قيس» بإنفاق المال في حاجات الناس، فقرر أن يبذل نفسه، حتى يحقق قول القائل:

---

(١) موسوعة الفداء للشرباصي (١/ ٣٢٦).

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

ولهذا عرض نفسه في ساحات الجهاد، فخرج مع «أبي عبيدة بن الجراح» في غزوة الخبط، وتعرض الناس أثناءها إلى مَخْمَصَةٍ[١] شديدة، فنحر لهم «قيس» جزوراً، ولما وجد أنها لم تكفهم ألحق بها أختها، ثم أتبعها بثالثة، حتى بلغ ما نحره لهم تسع جزائر، ولو لم ينهه «أبو عبيدة» أمير القوم يومها عن ذلك لزاد، ولما عادوا إلى رسول الله ﷺ وأخبروه بصنيع «قيس بن سعد» قال رسول الله ﷺ: **(إن الجود من شيمة أهل ذلك البيت)**. والشيمة هي الطبع، والطبع أَلْوَطُ[٢] بالنفس، ولن يفارقها حتى تفارق الحياة.

وفي مجلس كان يحضره العمران: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ذُكِرَ «قيس» وبَذْلُه، فقالا: (لو تركنا هذا الفتى لسخائه، لأَهْلَكَ مال أبيه)، ولما سمع «سعد بن عبادة» رضي الله عنه بما قاله العمران، قال: (مَنْ يَعْذِرني من ابن أبي قحافة وابن الخطاب؟ يبخِّلان عليَّ ابني) إن الولد سر أبيه، وغالباً ما يتبع منهجه، ويقتفي خطاه، وما أحسن اقتداء الأبناء بآبائهم في مجال الفضائل والمكارم، حتى يستمطروا لهم الرحمات، وتزيد في صحائفهم الحسنات، ولو بعد مفارقتهم الحياة!.

وكان «قيس بن سعد» لا يخشى في الحق لومة لائم، فهو ظهير لصاحبه ونصير ما بَيَّن له الطرف الأحقَّ به والأولى بالوصول إليه. ولهذا وقف إلى جانب «عليّ بن أبي طالب» رضي الله عنه في معارك «صفين» و«الجمل» والنهروان.

---

(١) مَخْمَصَة: جوع.
(٢) أَلْوَطُ: أَلْصَقُ.

وكفاه من الفخار، حمله لواء الأنصار، من يوم فتح مكة، وكان ينشد بعد وفاة النبي ﷺ:

هذا اللواء الذي كنا نحف به ... مع النبي وجبريل لنا مَدَدُ[1]
ما ضر من كانت الأنصار عصبته ... ألاَّ يكون له من غيرهم أَحَدُ
قوم إذا حاربوا طالت أكفهم ... بالمشرفية حتى يفتح البلدُ

هكذا كان «قيس بن سعد» براً وفياً، وبأهل الحق حفياً، إلى أن وافته المنية سنة تسع وخمسين للهجرة، رحمه الله تعالى، وجزاه بما هو أهله.

(١) الأبيات في أسد الغابة (٣/٤٩٨).